وهكذا ايضاً يتقاطع صوت «الصحراء» مع صوت «حامد» القريب، ونقطة التقاطع هي صوت خطوات الأقدام.

«**أصوات خطوات ثقيلة تنسحب فوق الرمل الناعم وراء الهضبة تماماً**. لقد أخذت حواسي جميعاً تعمل دفعة واحدة. ومضيت اقيس أصوات الخطوات البعيدة» (ص ٢٠٤).

هذا التقاطع، يجد ذروته في النهاية، لحظة المواجهة التي تتم في آن واحد، رغم البعد المكاني؛ حيث يزداد التشابك والتوتر وفوضى الأصوات، فتسحب المواجهة توترها على الشكل، ويعبر الشكل المتوتر باخلاص عن توتر لحظة المواجهة وفوضاها.

في رواية «ام سعد» يتوسل غسان كنفاني شكلاً فنياً متقشفاً، أكثر بساطة، وأقل عناية بالمغامرة والتجريب، ليصل بيسر إلى أعرض قطاع يستطيع الوصول إليه. ففي لوحاتها التسع المنفصلة، لاحدث محورياً ينمو، وانما أحداث تتراكم وتتمحور حول الشخصية الروائية المحورية «ام سعد» لتغذيها وتنميها، فهي رواية الشخصية بالدرجة الاولى، وبناؤها يقترب أكثر من الشكل التسجيلي.

وإن حقق هذا التبسيط غاياته التعليمية والتحريضية، فقد كان ذلك على حساب الانجاز الفني الذي حقّقه الكاتب في روايتيه الاولى والثانية، رغم انهما حققتا بدورهما الغايات التعليمية والتحريضية بدرجة ارتفاع مستواهما الفني وليس بدرجة ارتفاع النبرة التعليمية والتحريضية فيهما.

فالكاتب، في الرواية، لا يمثل شخصية محايدة، وان بدا كذلك في الوهلة الاولى، ولكنه جزء منها، يعلم المرأة ويتعلم منها، ويُسقط على لسانها رؤياه السياسية الايديولوجية:

– «ذلك الناطور يتعقبني من قرنة إلى قرنة، يريدون ضربنا ببعضنا، نحن المشحّرين، كي يربحوا ليرتين» (ص ٣١٩).

– «حجاب؟ انني اعلقه منذ كان عمري عشر سنين، ظلنا فقراء، وظللنا نهترىء بالشغل، وتشردنا، وعشنا هنا عشرين سنة. حجاب؟ هناك اناس ينتفعون بالضحك على لحى الناس» (ص ٣٣٦).

ولا شك أن غسان كنفاني، بهذا الشكل المغرق في تقشفه، كان يخوض مغامرة اخرى، فلم يقتحمها إلا بعد أن خلف وراءه تركة كبيرة. وهو يقول في هذا الصدد: «طرحت جانباً ما كنت اعتقد انه انجاز فني ثمين حققته في «ما تبقى لكم» وحاولت أن اجعل من «ام سعد» كتاباً تقرأه الجماهير، ويكون صلة بين ما نتعلمه منها، وما يجب أن نعلمه لها»[٢٠].

وينطبق هذا القول، وان بدرجة أقل، على رواية «عائد إلى حيفا»؛ فهي تنتمي إلى نتاج ذات المرحلة التي شهدت صعوداً سياسياً، فاستجابت لمتطلبات السياسة من تعليم